



قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ

(034) سورة سبأ

اللقاء الأول من تفسير سورة المؤمنون: شرح الآيات 1-16

2024-07-06

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين. اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا رب العالمين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعمل، ومن حول الشهوات إلى جنّات القربات. وبعد: فمع اللقاء الأول من لقاءات تدبّر سورة المؤمنون، ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1)

(سورة المؤمنون)

سورة المؤمنون سورة مكّية بكاملها:

سورة المؤمنون سورة مكّية بكاملها، وقد وُرد في صحيح مسلم، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم، قرأ في صلاة الصبح سورة المؤمنون في مكة، فلما وصل إلى ذكر موسى وهارون، سعل سعلًا فركع، هكذا وُرد في الصحيح، فهي نزلت بمكة وقرأها النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر في مكة. والحقيقة أنّ هذه السورة تتحدث عن صفات المؤمنين، وعن الميّزات التي يتمتع بها المؤمن، وتبدأ بقوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) وقد حُتمت قبلها سورة الحج، في الآية قبل الأخيرة بقوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ □ (77)

فناسب ذلك أن تبدأ سورة المؤمنون بقوله تعالى: **(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)** ففي سورة الحج في الختام **(لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ)** وهذا رجاء، والرجاء من الله تعالى أمر واقع حتماً، لذلك ابتدأت سورة المؤمنون **(قَدْ أَفْلَحَ)** بحرف التحقيق (قد) بمعنى أن الفلاح من الله تعالى إذا وعد به فهو واقع. ثم قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4)

(سورة المؤمنون)

وفي ختام الحج **(ازكفوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير)** وهي الصلاة والزكاة بطريقة أخرى، وهذا من المناسبات بين ختام الحج وبداية المؤمنون.

فرق بين الفلاح والنجاح:

إذا يقول تعالى: **(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)** و(قد) حرف تحقيق، بمعنى أن الفلاح محقق، والفلاح أصله من الفلح وهو الشق، وسمي الفلاح فلاحاً، لأنه يشق الأرض، ويضع فيها البذرة، ثم يحرت الأرض بعد زراعتها، ثم يتعدها، وتنمو وتعطي الثمرة، فالفلاح مفلح بهذا المعنى، فعندما تحقق الهدف والمقصود الذي جنت من أجله، فقد أفلحت، فلو درس الإنسان في الجامعة ست سنوات ثم لم يتخرج فهذا ليس فلاحاً، ولو أسس أسرة ولكنها انتهت بالطلاق، فهذا ليس فلاحاً، ولو أنه أنجب أولاداً، ولكنهم كانوا عاقين له في المستقبل وليسوا على الصلاح فهذا ليس فلاحاً، قد يُسسى ما يصنع المرء في الدنيا نجاحاً، وفي القرآن ليس هناك نجاح، يتحدث ربنا دائماً عن الفلاح، أفلح، لعلكم تفلحون، فالفلاح هو أن تحقق المقصود من الشيء، ولا يفلح الإنسان إلا إذا نجا يوم القيامة من عذاب جهنم وأدخل الجنة، وهذا هو الفوز العظيم، والفلاح الكبير.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) والإيمان يأتي من التصديق، ويأتي من الأمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا □ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ □ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82)

(سورة الأنعام)

ويقول ربنا جل جلاله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا □ عَفْرَاتِكِ رَبَّنَا وَالِئِكَ الْمَصِيرُ (285)

(سورة البقرة)

فالإيمان بمعنى التصديق، فمن صدق فقد آمن، فإذا آمن حقق الأمان الذي هو عدم توقع المصيبة، فهو يرجو مستقبلاً خيراً بإيمانه، فرق كبير بين الأمان والسلامة، السلامة أن يمضي يومك دون مشكلة، فقد سلمت، لكن الأمان أن لا تتوقع المصيبة غداً، فالأمان ألا تتوقع الشر، والسلامة أن تسلم منه حالاً، والمؤمن أمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَاتَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)

لأنه مع الله فكل شيء سيأتي لمصلحته، فهم أم لم يفهم، فهو آمن من هذا الأمر، أما غير المؤمن، فقلق بشأن مصيره، الموت يقلقه، كلما دنا من الموت وكبر عمره يقلقه تقدم العمر، لأنه سيقيم على الله تعالى وما أعدّ شيئاً، أما المؤمن حاله كحال بلال، غداً تلقى الأجابة محمداً وحزبه.

{ سَمِعْتُ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ بِصِفِّينَ بِالتَّوْبِ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ وَهُوَ يُنَادِي: أُرِلِقَتِ الْجَنَّةُ، وَرُوجَتِ الْخُورُ الْعَيْنُ، التَّيَوْمَ تَلْقَى حَبِيبَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ. وَفِي رِوَايَةٍ: تَلْقَى الْأَجِبَةَ، مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ، عَهْدَ إِلَيَّ أَنْ أُخْرِجَ زَادِكَ مِنَ الدُّنْيَا صَبِيحًا مِنْ لَيْلِي. }

(الألباني السلسلة الصحيحة)

فالأمن من الإيمان، والتصديق من الإيمان، والله تعالى يقول: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) فالمؤمن فالح.

صفات المؤمنين:

الآن ما صفاتهم؟ سيعرض ربنا جلّ جلاله صفات المؤمنين في هذه الآيات، وقد قالوا الصفة قيد، بمعنى لو قلت إنسان، فإنك تعني بها اليوم ما يقرب من ثمانية مليارات شخص، كبير صغير، ذكر أنثى، مثقف غير مثقف، على وجه هذه البسيطة، فإذا صفت إليها مسلم فقد صغرت الدائرة إلى مليارين، أي الربع، فإذا قلت عربي فقد نزلت تحت المليار، فإذا قلت مثقف نزلت إلى الملايين، فإذا قلت طيب نزلت إلى مئات الألوف، فإذا قلت قلبية، نزلت إلى عشرات الألوف، وهكذا، فكلما أضفت صفة صغرت الدائرة، فالصفة قيد، فلما قال ربنا: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) يعني أي إنسان آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدرة خيره وشره من الله تعالى، فهو مفلح، لكن الصفة ستقيّد، ما كل مؤمن سيفلح الفلاح الذي يريد الله تعالى.

الصفة الأولى:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) الخشوع هو السكون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَخْبَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(39)

(سورة فصلت)

ساكنة، (فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) فالاهتزاز والنمو، ربت، نمت بعكس الخشوع، الخشوع هو السكون، والخشوع في القلب، فهو سكون القلب، وينعكس سكون القلب على الجوارح فتسكن مع القلب، وقد ورد عن سيدنا عمر رضي الله عنه، أنه رأى رجلاً يعبت بلحيته أو برأسه في صلاته، فقال: " لو خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ " يعبت أي بكر، داخل صلاته دائماً يعبت، وليس أنه حكّه جلده فحكّك يده، أو أراد أن يُعَدّل من وضعه، أو نَسِيَ هَاتِفَهُ في وضع الرنين فأراد أن يسكنه لئلا يزج المصلين، فهذا كله لإصلاح الصلاة، لكن لقا أكثر من الحركة في الصلاة دون مُبْتَرِّز، فقال: لو خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ، فالخشوع هو سكون القلب، وينعكس على سكون الجوارح، فيسكن الإنسان بين يدي الله، لأنه يعلم بين يدي من يقف، حاله أعظم من حال من دخل إلى ملك من ملوك الأرض، فجلس بين يديه متأدّباً لا يجرؤ أن يعبت بلحيته، ولا أن يُكَيِّر من حركاته بين يديه، ولا أن يمد رجله، فيسكن بين يدي هذا المسؤول، فحال المصلي في صلاته أعظم من حالك بين يدي ملك من ملوك الأرض.

فوالخشوع هو السكون، والله تعالى ما قال الذين هم يؤدون صلاتهم، لأن هذا أمر مفروغ منه بالنسبة للمؤمن، يقول صلى الله عليه وسلم:

{ العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر }

(أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد)

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ قَاعِلُونَ) أيضاً لم يقل يؤديون زكاتهم، وإنما قال يفعلونها، والفرق بين أدائها وفعلها، شيء جميل جداً ذكره الشعراوي رحمه الله في تفسيره، معنى دقيق جداً، يصطبح بية أداء الزكاة منذ بداية عمله، أي هو لما يدخل في العمل، يستحضر في داخله أن ما سأجني فيه من ربح، سيكون جزء منه لله، فيبني عمله على هذا الأساس.

الزكاة تأتي من شيتين، تأتي من الطهارة ومن النماء:

لذلك يُطلب من المؤمن أن يعمل، وأن يسعى لأن يكون مؤدياً للزكاة، سواءً أدرك ذلك أم لم يدرك، قد يزرقه الله فيؤدي الزكاة وقد لا يزرقه، لكن هو يفعلها، بمعنى أنه يجعلها فعالة في عمله، فيقول أنا إن شاء الله في آخر الشهر راتبى خمسمائة، سأترك عشر دنانير لله تعالى، من البداية، أو يقول أنا إن شاء الله أرباحي كذا، فإذا استطعت أن أصاعف جهدي وعملي، فتصاعف أرباحي في العام القادم، فيتجمع معي النصاب، فإن شاء الله في السنة القادمة عندي زكاة مال، فالزكاة هي جزء من كينونة المؤمن، ولا يقول فائق أن هذه الآيات نزلت بمكة وإن الزكاة قد فرضت في المدينة، لأن الذي فرض في المدينة هو مقاديرها وأنصبتها، أمّا الزكاة بالمعنى المطلق، وهو أن يعطي الإنسان فضل ماله للفقراء والمساكين، فهي موجودة منذ فجر التشريع الإسلامي، والزكاة تأتي من شيتين، تأتي من الطهارة ومن النماء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)

(سورة التوبة)

الطهارة لأن المال فيه حق، فلا يطهر إلا بدفع الحق الذي هو فيه، أنت معك مئة، اثنان ونصف ليسا لك، فإذا بقيا في المال فالمال غير طاهر، لا يطهر المال إلا بدفع الزكاة، إذا بلغ المال النصاب، وينمو المال أيضاً بدفع الزكاة، كيف ينمو؟ ينمو بقانون الربِّ جلَّ جلاله، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا تَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

(سورة الروم)

الربا لماذا يصنعه الإنسان؟ ليربو، ليزيد، الربا هو الزيادة، فأنا عندما أعطيت إنسان مئة وأقول له ارجعها مئة وعشرة، فأنا أردت أن أزيد في مالي، قال فلا يربو عند الله (وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ) الزكاة نقص مال (تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) مضاعفة، القانون الإلهي شيء وقانون البشر شيء، فعندما نقول الزكاة نماء، سينمو المال لأن الله يريد له أن ينمو، وينمو المال أيضاً بطريقة يعرفها الاقتصاديون، أن الإنسان عندما يدفع زكاة ماله، فتنمو القوة الشرائية عند الناس، فيعود الفقراء للشراء منه، فتتحرك دورة الحياة، فينمو المال.

معنى وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ قَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5)

(سورة المؤمنون)

الْفُرُوجُ: جمع فرج، وهو سوءة الرجل أو سوءة المرأة، أي العورة المُعلَّطة، حافظون: أي يحفظونها بمعنى يمنعونها إلا في ما حُلِّقت لأجله، فلا يكشفونها، ولا يجعلونها أداة لارتكاب مُحَرَّم، (لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6)

(سورة المؤمنون)

(إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ) مع زوجته، (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) ملك اليمين، (فَاتَّهَمَ عَيْرٌ مَلُومِينَ) فلا يلام الإنسان، ميدئياً لا يلام، على عدم حفظ فرجه، فهذا مباح لزوجته، أو مَلَكَ اليمين، لكن لو أنه ابتغى وجه الله، فإنه لا يقال لا يلام فقط، وإنما يُؤَجَّر، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

{ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ ، يُصَلُّونَ كَمَا نَصَلِي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفَضُولِ أَمْوَالِهِمْ ، قَالَ : أَوْلَيْسَ فَدِ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ ؟ إِنْ بَكَلَّ تَسْبِيحَةَ صَدَقَةٍ ، [وَبَكَلَّ تَكْبِيرَةَ صَدَقَةٍ ، وَبَكَلَّ تَهْلِيلَةَ صَدَقَةٍ ، وَبَكَلَّ تَحْمِيدَةَ صَدَقَةٍ] ، وَأَمُرُّ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ! قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَيَّتِي أَحَدُنَا شَهَوْتَهُ وَبَكَوْنُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ ! قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ ؟ [قَالُوا : بَلَى ، قَالَ :] فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ [فِيهَا] أَجْرٌ ، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ : صَدَقَةٌ ، صَدَقَةٌ ، ثُمَّ قَالَ : وَيُجْزِيئُ مِنْ هَذَا كُلُّهُ رَكَعَتَا الصُّحَى }

(أخرجه مسلم)

لكن ميدئياً غير مُلام لأنه بالحلال، فلا لوم في الحلال، الزوجة واضحة، امرأة عقد عليها الإنسان، عقداً صحيحاً شرعياً، خالياً من الموانع، مستحضراً لشروطه، فهي زوجته، فتباح له، إلا ما حرّم الشرع عليه في علاقته بزوجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ □ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ □ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ □ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)

(سورة البقرة)

الموضع الحرج، وفي حالة غير العذر الشرعي.

ملك اليمين:

ملك اليمين: هي المرأة التي كان أمرها بيعاً وشراءً، الأمة، التي تباع وتشتري، أو أسيرة الحرب، التي أُسرت في الحرب، فتملكها الجنود فأصبحت مُلكاً لليمن، هذه ملك اليمين، لم يعد لها وجود اليوم، الحكم موجود، الحكم لم ينسى، هناك فرقٌ بين الحكم غير موجود، وبين الحكم موجود لكنه مُعطل لعدم وجود أرضية له في الواقع، يعني الحكم يطبّق على شيء، الصلاة واجبة لأن هناك إنسان يُصَلِّي، فالوجود متعلق بوجود شيء يجب عليه.

سيدنا عمر رضي الله عنه، كثير من الخطباء يقولون إنَّ عمر رضي الله عنه ألغى حكم المؤلفة قلوبهم، الزكاة تعطى لثمانية أصناف، أحد الأصناف المؤلفة قلوبهم، أي الأشخاص الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، فنريد أن نتألف قلوبهم ليحسّن إسلامهم، فنعطيه من الزكاة تتألف بها قلوبهم، سيدنا عمر لم يلغى الحكم، عطّل تطبيقه، لأنه لا يوجد مؤلفة قلوبهم في عهده، الفتوحات انتشرت، والإسلام عمّ، فلم يعد عنده أشخاص يطبّق عليهم هذا السهم فأوقفه، ولكن لم يوقف الحكم بل أوقف تطبيق الحكم، أمّا الحكم موجود.

بالمناسبة أيضاً يقولون إنَّ سيدنا عمر رضي الله عنه أوقف حكم قطع اليد في عام الرمادة، لم يوقف الحكم، بل عطّل تنفيذه عملاً بتص رسول الله صلى الله عليه وسلم:

{ ادْرؤُوا الْحدُودَ بِالنَّسَبَاتِ }

(الألباني إرواء الغليل)

فلما وجد هناك شبهة كبيرة وهو أنَّ الناس جائعة، فقطع اليد والناس جائعة تريد أن تأكل وتشرّب، لا ينبغي وفي (ادرؤوا الحدود بالنسبات) فعطل تطبيق الحد بموجب نص آخر، وجعل العقوبة تعذيرية في هذا العام، بحيث يعاقب السارق لكن لا يقطع يده، فسيدنا عمر فقيه، لا يمكن أن يوقف حكماً من أحكام الله، لكن من فقهه عطّل هذا الحكم لأنه لا وجود له على أرض الواقع.

فملك اليمين، الحكم قائم، ولو وجد له في المستقبل أرضية يعود تطبيقه، لكن حالياً توافقت الأمم على أنه ليس هناك إماء، طبعاً للأسف الشديد نقول ذلك، أنَّ الأمم اليوم أصبحت تُستعبد بالجملة، الاستعباد لم ينتهي، لكن أخذ صوراً جديدة للأسف، اليوم يستعبدون أمماً بالجملة، لكن قضية الإماء وملك اليمين أوقفت، الإسلام لَمَّا جاء، ملك اليمين كان قائماً، لا يقول قائل إنَّ الإسلام شرع ملك اليمين، الإسلام وضع قواعد للتعامل مع العبيد ومع الإماء، والقواعد هي حاجة لا بُدَّ منها، لتنظيم الأمر، وإنهائه بالطريقة الصحيحة، فملك اليمين موجود، و أمم الأرض جميعها كانت تتعامل بالإماء، فبالحرب عندما يؤسّر هذه ملك يمين، إماء، سمّها ما سمّته، الإسلام سمّها ملك اليمين، فلا يُعقل أن نؤمنهم على نسائهم وهم يستبيحون نسائنا، فمن باب المعاملة بالمثل.

الإسلام وضع قواعد للتعامل مع ملك اليمين، تكون لرَجُلٍ مُعَيَّن، تعيش في بيته وتحت سلطانه، ويحميها الإسلام من الوقوع في الحرام، فتصبح شبيهةً بالزوجة، فإذا ولدت وأصبحت أم ولد، أخذت حريتها بولدها، فهو طريقٌ نحو تحريرها، وطريقٌ نحو إدخالها في مدرسةٍ داخلية لتري عدالة الإسلام، كثيرٌ من أمهات الخلفاء، وزوجات الخلفاء بنى أمية كانوا في الأصل من الإماء، لكن الإسلام لم يسلبها مكانتها ولا كرامتها بذلك، وإنما قَدَّرَ أنها امرأة، تعيش في بيت رَجُلٍ متزوج، وتعلم من واقع الحال أنَّ النساء، الزوجة أو الزوجات يعيشن مع زوجهم بالوضع الطبيعي، وهي أصبحت الآن ليس لها أي شيء، ولا زوج ولا أحد، فلا بُدَّ من تحصينها، اعترافاً بحاجتها لذلك، لا يُنكر ذلك عاقل، فوضعها الإسلام في بيئةٍ مسلمة، ترى عدل الإسلام، ترى كيف يتعامل الرَّجُل، حتى نهى الإسلام فقال:

{ لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمْتِي وَلَكِنْ لِيَقُلْ فِتَاي وَفِتَاتِي }

(الشوكاني فتح القدير)

الإسلام سهل عملية التخلص من العبيد من خلال عتق الرقبة وفك الرقبة:

حتى باللفظ لا تفل عبد، كلنا عباد لله عزَّ وجل، وبدأ يُسهَّل عملية التخلص من العبيد، فجعل عتق الرقبة وفك الرقبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلَا أُفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13)

(سورة البلد)

حلفت يميناً أعتق رقبة، ظهرت من زوجتك أعتق رقبة، قتل خطأ أعتق رقبة، فبدأ بالإعتاق بطريقةٍ صحيحة، حتى وصل الأمر إلى أنه يمكن أن يُعتق عبدٌ فيقول اتركني عندك عبد لأن الحياة الكريمة التي أعيشها داخل بيتك، والتي هي عبد بالاسم فقط، أفضل من العيش في هذا المجتمع السيء، وصل الأمر لذلك في بعض البيوتات، فملك اليمين ليست شريعةً إسلامية، ملك اليمين هي حالةٌ قائمة، وضع لها الإسلام ضوابطها، والله تعالى يقضي ما يشاء، وهو الأعلم والأخير بشؤون عباده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَاتَّبَعْتَهُمْ عَيْزٌ مَلُومِينَ (6) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ قَاُولِيكَ هُمُ الْعَادُونَ (7)

(سورة المؤمنون)

فمن طلب وراء ذلك، وراءه: أي بعده، غيره (قَاُولِيكَ هُمُ الْعَادُونَ) أي المتجاوزون للحدود التي حدَّها الله تعالى، ولك أن تفهم من قوله تعالى: (فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ) هذا اللطف في الخطاب، وذاك الذوق العالي، وذاك الأدب الرفيع.

فأدخل كل الممارسات المحرَّمة التي تكون في غير العلاقة الصحيحة مع الزوجة أو مع ملك اليمين في قوله: (فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ) بدأ بالاستمراء وانتهاءً بالزنا والفاحشة والشذوذ، وكل العلاقات المنحرفة، لِحَصِّهَا (فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)، (قَاُولِيكَ هُمُ الْعَادُونَ) أي المتجاوزون لحدود الله، كلٌ بقدر تجاوزه، فالزنا فاحشة، وأن يأتي الرَّجُل الرَّجُل فاحشةً أكبر، وغير ذلك، (قَاُولِيكَ هُمُ الْعَادُونَ) المتجاوزون للحدِّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8)

(سورة المؤمنون)

الأمانة وأعظم الأمانات أمانتك مع الله:

الأمانة هي ما يؤتمن عليه الإنسان أن يؤديه، والأمانات جاءت جمعاً لأن لكل شيءٍ أمانة، وأعظم الأمانات أمانتك مع الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَعْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا (72)

(سورة الأحزاب)

فهل حملت الأمانة حقاً؟ فعبدت الله وأتيت ما أمر واتتهبت عتياً نهى عنه وزجر، ثم لكل عمل أمانة، فعملك أمانة، فهل تنصح أم تغش، الطبيب هل يعامل المرضى بالأمانة أم يعاملهم بالخيانة، والمحامي هل يوهم الخصم لديه بأن القضية رابحة وهو يعلم يقيناً أنها خاسرة، أم يوضح له الحقيقة كاملة، والتاجر هل يبيع البضاعة بسعر معتدل ويوضح عيوبها إن كان بها عيوب، إلى آخره....

فالأمانة مفهومها واسع، والمعلم في صفه هل يعطي الوقت كاملاً للطلاب، هل يصحح واجباتهم، هل يراعي ضعف ضعيفهم، وقوة قوتهم، إلى آخره، فهذه أيضاً أمانة المهنة، وللمجالس أمانة، فإذا حدث الرجل بشيء كما قال صلى الله عليه وسلم ثم التفت فهي أمانة

{ إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة }

(أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد)

من غير أن يقول لك، لكن لئما قال لك سأخبرك شيئاً ثم التفت وكأنه يشير إليك إلى أنه يريد أن يتأكد أن لا أحد يسمع، فهذه أمانة المجالس، فالمهنة أمانة والمجلس أمانة والإيمان أمانة، وكلها أمانات فجمعها فقال: **(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَاتِيهِمْ)** البعض يتوهم أن الأمانة أن إنساناً قد سافر فوضع عندك منة فرجع فأعطيته إياها، هذا جزء من الأمانة لكنه ليس كل الأمانة **(وَعَهْدِهِمْ)** العهد هو ما يعاهد الإنسان به ربه أو يعاهد به الخلق، على فعل شيء أو تركه، فينبغي أن يرعى ذلك، **(زَاعُونَ)** أي ملتزمون بأماناتهم وعهدهم حافظون لها يرعونها حق رعايتها ويلتزمون بها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9)

(سورة المؤمنون)

الآن جاء بالصلوات بالجمع، **(عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)** يبدأ بالصلاة وختم بالصلاة، لأنها أول الأمر وآخره، ورأس الأمر وعموده، ولأنها المعول عليها، ولشدة أهميتها بدأ بالخشوع بها وهو الأهم، وأنهى بالمحافظة عليها، بمعنى أن تؤدي في أوقاتها التي أمر الله تعالى بها، وعلى الهيئة التي أرادها الله تعالى، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10)

(سورة المؤمنون)

من هم الوارثون:

أي المستجمعون لتلك الصفات السابقة **(هُمُ الْوَارِثُونَ)** والوارث هو الذي يأخذ حقاً من غير عقد ولا هبة، أنت عندما يصلك شيء، إما أن يصلك بعقد بيع، تشتري سيارة، توقع عقداً، تُعطي الثمن، تأخذ السلعة، أو هبة، تنجح في الامتحان فيأتي لك والدك بهاتفٍ نقال، فأنت تملك الشيء عقداً أو هبة، لكن الحق الذي تملكه بغير عقد ولا هبة هو الميراث، وسئل أحد الصالحين فقيل له لئما ورت كيف تملك هذا المال؟ هل تملكته بعقد؟ قال: ليس هناك عقد، قال: هل أخذت هبة؟ قال: لا، قالوا فأين العقد؟ قال: قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُوسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُوسُ ۚ وَبِأَوْلَادِكُمْ وَابْنَاتِكُمْ لَآتُورُونَ ۚ لَهُمُ أَقْرَبُ لَكُمْ تَفْعًا قَرِيبَةً مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11)

(سورة النساء)

فقالوا أعظم العقود هو عقد الميراث، لأن الله تعالى جلَّ جلاله هو الذي عاقده عليه، فهو الذي وهبك إياه، وهو الذي أعطاك إياه، فلذلك الميراث من أعظم الحقوق عند الله تعالى، **(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)** فلا يتجرأ إنسان على أن يقول أعطني البنت ولا أعطني الذكر، أو أعطني الأنثى، أو يتلاعب بالميراث قبل موته فيقول: ليس عندي ذكور وسيرت إخوتي مني فساسجل كل أملاكي لبنتاتي، هذا تلاعب بالحقوق، ولا يقول أب أنا ابني كان عاقباً فسأحرمه من الميراث، القضية ليست عقوقاً ويزاً، القضية قضية حق له، عاق أم بار سبحانه الله تعالى على عقوقه، أمّا حقه لا تمنعه إياه بعقوقه، ولا تزيد به، طبعاً النفس مبنية على حب من أحسن إليها، فالإنسان حر التصرف بماله، فلو كان ابن يأتي إليه يومياً، فأتى له بهدية مرة ومرتين وعشرة، فهذا لا شيء فيه، لكن أن يقول سأسجل لك البيت كله والمعمل كله لأن أخاك لا يزورني في مرضي، هنا المصيبة، على كلٍ فالميراث أمر مهم جداً، فقال: **(أَوْلَيْكُمُ الْوَارِثُونَ)** لكن ما هذا الميراث؟ قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)

(سورة المؤمنون)

كيف الميراث تأخذه من غير جهد منك، ألا يقول العوام ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، لا يوجد جهد، أمّا أحياناً الإنسان يتعب كل عمره ليبنى ثروة، يأتي آخر والده كان صاحب ثروة، أو عمّه وليس له أولاد، فجأة يرث، فالميراث لا جهد فيه، فما الذي قدّمناه نحن لله تعالى حتى أعطانا الجنة؟ ولا شيء، فقال: **(الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)** ففيها البقاء الدائم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12)

(سورة المؤمنون)

معنى **(مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ)**:

سلالة: أي خلاصة، يعني من أجود الطين، إذا أمسكت الطين بيدك وقمت بعصره، يخرج من بين الأصابع خلاصته، وتبقى الشوائب في الداخل، هذه هي السلالة، **(مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ)** آدم عليه السلام، طين: أي ماء وتراب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ جَعَلْنَاهَا نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13)

(سورة المؤمنون)

آدم من تراب، ثم الخلق تناسلوا عن طريق النطف، فالنطفة جُعِلت في قرار مكين، والنطفة وُضِعَت في السائل المتوي، ثم جعل **(في قَرَارٍ مَّكِينٍ)** والقرار: الذي يستقر به الشيء، ومكين: أي آمن، فقد أحاط الله الرجم بعظام الحوض لتحميه، وجعلها في الوسط الهندسي للمرأة، والوسط دائماً هو القرار، **(في قَرَارٍ مَّكِينٍ)** أي في الرجم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِطَافًا فَكَسَوْنَا الْعِطَافَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14)

{ إني أرى ما لا تَرَوْنَ وأسمع ما لا تسمعون أَطَلَّتِ السَّمَاءُ وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنُطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جِهَتَهُ لِلَّهِ سَاجِدًا وَاللَّهُ لَو
تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلِبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَدَّدْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ
لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعَصَّدُ }

(أخرجه ابن ماجه والترمذي وأحمد)

فحتى تُعْمِرَ الأَرْضَ، وتستمر الحياة، وتتزوج، وأولاد، ونعيش، لا بُدَّ من هذه الفجوة بين الواقع واليقين، لكن متى تكون سيئة؟ عندما يكون هذا الواقع فيه معاصٍ وآثام، فيصبح هذا
اليقين بالموت بالكلام بلا أي قيمة (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُنْعَتُونَ) للحساب والوقوف بين يدي الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

نور الدين الاسلامي